خواطر حول عينية ابن الشيخ سيديا

بقلم : احمـد ولد الحسن

ما فتىء العرب فى نهضتهم المعاصرة يفيضون الحديث فى شأن شعرهم القديم ، وإن له لشأنا ! فقد استوقف نظرهم ما يتميز به من استمرار فى الأشكال وتواصل فى طرق التعبير وثبات فى فنيات الصنعة حتى ليكاد مساره يكون نفيا لكل تطور وتمنعا على كل تجديد ، مع أنه ولاريب شعر سايـر الزمان وصارعه وتبادل والحياة التأثير واستطاع رغم عوادي الخطوب أن يبقى متصلا بقلوب ذويه حيا فى وجدانهم .

وقد انبنت على هذا الأمر جملة من المواقف النقدية وممارسات الابداع الأدبـي كان بعضها تمسكا بهذا الموروث تقديسا وحرصا على هذا التواصل إيمانا ، وبعضها نفيا له كفرا أو نفورا منه فرارا ، كما حاول بعض النقاد أن يكتشف التجديد حيث التقليد ويلبس العتيق لبوس الطريف حتى اختلط حابل المفاهيم بنابلها .

وقد كان للشعراء من ممارسة هذا الأشكال حظ يتجلى صريحا فى آرائهم النقدية حينا وضمنيا فى ممارستهم الابداعية أحيانا .

ولعلنا نستطيع أن نؤكّد أن الشعور بقضية التجديد والتقليد في الشعـر العربـي أحد الأسس الفكرية والمرتكزات الأصولية التي عليها يقوم الفكـر العربـي المعاصر برمته .

ولسنا نكتب هذه الأسطر لنبت في الأمر حكما فصلا بل يكفينا أن ننبه إلى أن طرح هذا لأشكال ليس كما يبدو لأكثر الناس وليد النهضة الأدبية المعاصرة في المشرق العربـي ، بل سبق لشاعر ناقد من بلاد المغرب العربـي أن فطن إليه ووعى ابعاده وعيا صريحا مستندا إلى تصور نقدي خصيب غير متأثر بالثقافات الأجنبية ، وذلك منذ منتصف القرن الماضي .

هذا الشاعر هو ابن الشيخ سيديا الذي عاش صميم نهضة أدبية زاهرة في صقع عربـي صحراوي منعزل لا يزال أكثر أساتذة الأدب العربـي بين جاهل اسمه أو منكر أن يكون له في تاريخ الأدب العربـي مكان .

والقصيدة التي نعرض لها في هذا المقام نموذج من آثار هذه النهضة التي نأمل أن نمحص تراثها ونبرز خصائصها ونتبين ما لها في تاريخ أدب العرب من سبق ، وذلك في نطاق أوسع من هذا النطاق (1) .

وقد سبق أن اقتطفنا من هذه القصيدة بعض الشواهد (2) وسنحاول هنا أن نعرف القارىء بصاحبها تعريفا موجزا ثم نقدم نصها المحقق قبل أن نبـدى جملة من الملاحظات أوحت بها إلينا قراءتها راجين أن يكون فى ذلك لتاريخ الشعر العربـي نفع وللمهتمين بتراث بلاد شنقيط إفادة ولسائر القـراء اثـارة فضول .

---

(1) تعد الآن أطروحة لدكتورا الدولة عنوانها ، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري .

(2) وذلك في نطاق عملنا ،، أسلوب احمد بن الطلبه اليعقوبي ،، المقدم إلى الجامعة التونسية لنيل شهادة الكفاءة في البحث . أكتوبر 1980 .

وصاحب هذه القصيدة هو الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا ، أحد أبرز شعراء بلاد شنقيط في القرن الثالث عشر الهجري . ولد سنة 1247هـ/1832م في الجنوب الغربـي من موريتانيا الراهنة (ولاية الترارزة) . وكان أبوه الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة من أعظم شخصيات هذه البلاد نفوذا في القرن الماضي . فقد استطاع بعلمه الجم وصيته الذائع وجنابه المحترم أن يكون ساطة روحيـة وسياسيـة وحرمـا آمنـا في خضم ما تعيشـه بلاده آنذاك من فوضى طحـون (3) .

وقد تمتع الشيخ سيدي محمد بما أشاع والده حوله من مستوى علمي رفيع واستقرار سياسي وطيد ومستوى عيش رغيد . وكان له بأبيه تعلق المريد الصوفي بشيخه واسعفه الحظ بأن لم يبق بعده كثيرا إذ توفى الأب اخر سنـة 1248هـ/1867م . والابن سنـة 1286هـ/1869م (4) . وقد ترك لنـا ديوان شعر يناهز ثلاثـة آلاف بيت في مختلف الأغراض المعروفة عند العرب . ومن أشهر قصائده تلك التي يحذر فيها أبناء وطنه من الخطر الاستعماري الداهم، ويدعوهم الى اعداد العـدة لـه بالتخلص من الفـوضى السياسيـة التي كانت التمهيد الموضوعي للاحتلال الأجنبي (5) .

ويبدو أن العينية من آخر شعره إذ يتفق الرواة على أنها لم تنتشر في حياته بل وجدت بخطه بعد موته ومنها بيت به بياض مما يدل على أنها كانت في طور التسويد . وقد أورد منها صاحب الوسيط 28 بيتا (6) وصرح بالنقص في نسخته إذ قال بعد البيت الرابع والعشرين : « ومنها »

---

(3) حول الشيخ سيديا وعصره راجع :
الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي ص 250 وما بعدها ، الطبعة الثالثة ، القاهرة 1961 .

(4) راجع : بابكر بن حجاب : حوليات منظومة . مخطوط بحوزة محمد عبد الله بن الحسن .

(5) الوسيط ص 256 – 202 ونشير إلى أن طالبين من طلبة مدرسة المعلمين العليا بانو اكشوط يتعاونان الآن على تحقيق ديوان هذا الرجل باشرافنا .

(6) ص 270 – 271 .

وقد وجدنا نسخة منها فيها 51 بيتا بديوان ابن الشيخ سيديا المخطوط بمكتبة المعهد الموريتاني للبحث العلمي . بنواكشوط ، وقد جمعه ورتبه شيخ من ثقات الرواة العاملين بالمعهد .

والملاحظ أن بين مخطوطة المعهد ونسخة الوسيط اختلافا فى الترتيب لم نعول عليه لأن صاحب الوسيط قد احترز منه حيث قال : « وربما وقع فيها تقديم وتأخير لطول عهدى بها » (7) ولذلك اعتمدنا ترتيب المخطوطة باطراد . وهذا نص القصيدة : (كامل)

1 يَا مَعْشَرَ الْبُلَغَاء هَلْ مِنْ لَوْذَعِي
يُهْدَى حِجَاهُ لِمَقْصِدٍ لَمْ يُبْدَعِ

2 إنِّي هَمَمْتُ بِأنْ أقُولَ قَصِيدَةً
بِكْرًا فَأعْيَانِي وُجُودُ الْمَطْلَعِ

3 لَكُمُ الْيَدُ الطُّولَى عَلَيَّ إن انْتُمُ
أَلْفَيْتُمُوهُ بِبُقْعَةٍ أوْ مَوْضِعِ

4 فَاسْتَعْمِلُوا النَّظَرَ السَّدِيدَ وَمَنْ يَجِدْ
لِي مَا أحَاوِلُ مِنْكُمُ فَلْيَصْدَعِ

5 وَحَذَارِ مِنْ خلع الْعِذَار عَلَى الدِّيَا
رِ وَوَقْفَةِ الزُّوَّار بَيْنَ الأرْبُعِ

6 وَإفَاضَةِ الْعَبَرَات فِي عَرَصَاتِهَا
وَتَرَدُّدِ الزَّفَرَات بَيْنَ الأضْلُعِ

7 وَدَعُوا السَّوَانِحَ وَالبَوَارِحَ وَاتْرُكُوا
ذِكْرَ الْحَمَامَةِ وَالْغُرَاب الأبْقَعِ

---

(7) ص 272 .

8 وَبُكَـاءَ أَصْحَاب الْهَوَى يَوْمَ النَّوَى
وَالْقَوْمُ بَيْنَ مُـوَدِّعٍ وَمُشَيِّـع

9 وَتَجَنَّبُوا حَبْلَ الْوِصَال وَغَـادرُوا
نَعْـتَ الْغَـزَال أَخِـي الـدَّلَال الأَتْلَع

10 وَسُرَى الخَيَال عَلَى الكَلاَل لِرَاكِب الـ
شَّمْـلاَل بَيْـنَ النَّازِلِينَ الهُجَّع

11 وَدَعُوا الصَّحَارِيَ وَالْمَهَـارَى تَغْتَلِي
فِيهـا فَتَفْتِلُهَـا بِـفُـتْـل الأَذْرُع

12 وَتَوَاعُـدَ الأَحْبَـاب أَحْقَافَ اللِّـوَى
لَيْـلاً وَتَشْقِيـقَ الرِّدَا وَالْبُـرْقُـع

13 وَتَهَادِيَ النِّسْـوَان بِالأَصْـلاَن فِـي
الكُثْبَـان مِنْ بَيْـن النَّقَا وَالأَجْرَع

14 وَالْخَيْلَ تَمْـزَعُ فِـي الأَعِنَّـة شُزَّبًا
كَيْمَـا تُفَـزِّعَ رَبْـرَبًـا فِـي بَلْقَـع

15 وَالزَّهْـرَ وَالرَّوْضَ النَّضِـيـرَ وَعَرْفَـهُ
وَالْبَـرْقَ فِـي غُـرِّ الْغَمَـام الهُمَّع

16 وَالْقَيْنَـةَ الشَّنْبَـا تُجَاذِبُ مِزْهَـرًا
وَالْقَهْـوَةَ الصَّهْبَـا بِكَـأْسٍ مُتْرَع

17 وَتَحَادُثَ السُّمَّـار بِالأَخْبَـار مِـنْ
أَعْصَـار دَوْلَـةِ قَيْصَرٍ أَوْ تُـبَّـع

18 وَتَنَاشُـدَ الأَشْعَـار بِالأَسْحَـار فِي الـ
أَقْمَـار (8)

---

(8) هكذا وجد هذا البيت بخط الشاعر واكمله حفيده إبراهيم بن الشيخ سيديا بن الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيديا فقال (وما زال حيا)
وتناشد الأشعار بالأسحار في الـ ـأقمار ليلة عشرها والأربع
وهكذا انتشر على السنة الناس ظنا أنه للجد وهو مشترك بينه وبين حفيده .

19 وَتَدَاعِيَ الأَبْطَال فِي رَهَج القِتال
إلى النُّزَال بِكُلّ لَدْنٍ مُشْرَع

20 وَتَطَارُدَ الفُرْسَان بِالْقُضْبَانِ وَالـ
ـخُرْصَان بَيْنَ مُجَرَّدٍ وَمُقَنَّع

21 وَتَذَاكُرَ الْخُطَبَاء وَالشُّعَرَاءِ لِلـ
أَنْسَابِ وَالأَحْسَابِ يَوْمَ الْمَجْمَعِ

22 وَمَنَاقِبَ الْعُلَمَاءِ وَالكُرَمَاءِ وَالـ
ـصُّلَحَاءِ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ الخُشَّع

23 فَجَمِيعُ هذَا قَدْ تَدَاوَلَهُ الْوَرَى
حَتَّى غَدَا مَا فِيهِ مَوْضِعُ إِصْبَع

24 مِنْ مُدَّعًى مَا قَالَهُ أَوْ مُدَّعٍ
وَالمُدَّعَى مَا قَالَ أَيْضًا مُدَّعِ

25 وَالْيَوْمَ إِمَّا سَارِقٌ مُسْتَوْجِبٌ
قَطْعَ الْيَمِينِ وَحَسْمَهَا فَلْيُقْطَع

26 أَوْ غَاصِبٌ مُتَجَاسِرٌ لَمْ يَثْنِهِ
عَنْ هَمِّهِ حَدُّ الْعَوَالِي الشُّرَّع

27 مَهْمَا رَأَى يَوْمًا سَوَامًا رُتَّعًا
شَنَّ الْمُغَارَ عَلَى السَّوَامِ الرُّتَّعِ

28 فَكَأَنَّهُ فِي عَدْوِهِ وَعِدَائِهِ
فِعْلُ السُّلَيْكِ وَسَلْمَةَ بن الأَكْوَع (9)

29 وَالشِّعْرُ لَيْسَ كَمَا يَقُولُ الْمُدَّعِي
صَعْبُ الْمَقَادَةِ مُسْتَدِقُّ الْمِهْيَع

---

(9) السليك بن السلكة : صعلوك عداء مشهور .
وسلمة بن الاكوع : صحابي عداء مشهور ، كان يسبق الفرس ، ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة الجزء 2 ص 67 .

30 كَمْ عَزَّ مِنْ قُحّ بَلِيـغٍ قَبْلَنَـا
أَوْ مِـنْ أَدِيـبٍ حَـافِـظٍ كَالأَصْمَعِي

31 هَلْ غَادَرَتْ ، هَلْ غَادَرَ الشُّعَراء ،فِ
بَحْرِ الْقَرِيضِ لِوَارِدٍ مِنْ مَشْرَعِ ؟

32 وَالْحَوْلُ يَمْكُثُهُ زُهَيْـرٌ حُجَّـةٌ
أَنَّ الْقَوَافِي لَسْنَ طَوْعَ الإِمَّـعِ

33 إِنَّ الْقَرِيضَ مَنَزَّلَـةٌ مَـنْ رَامَـهُ
فَهْـوَ الْمُكَلَّفُ جَمْعَ ما لَمْ يُجْمَعِ

34 إِنْ يَتْبَـعِ الْقُدَمَا أَعَـادَ حَدِيثَهُمْ
بَعْـدَ الْفُشُوِّ ، وَضَلَّ إِنْ لَمْ يَتْبَعِ

35 وَتَفَـاوُتُ الشُّعَـرَاءِ أَمْـرٌ بَيِّـنٌ
يَـدْرِي الْغَبِـيُّ وُضُوحَـهُ وَالأَلْمَعِي

36 مَا الشَّاعِرُ الْمَطْبُـوعُ فِيهِ سَلِيقَةٌ
وَجِبِلَّـةٌ مِثْـلُ الَّذِي لَـمْ يُطْبَعِ

37 وَمُهَذَّبُ الأَشْعَـارِ بَـادٍ فَضْلُـهُ
عِنْـدَ السَّمَـاعِ عَلَى الْمُغَنِّ الْمُسْرِعِ

38 مَا الشِّعْـرُ إِلاَّ مَـا تَنَاسَـبَ حُسْنُـهُ
فَتَجَـرَى عَلَى مِنْوَالِ نَسْجٍ مُبْدَعِ

39 لَفْظٌ رَقِـيقٌ ضَمَّ مَعْنًـى رَائِقًـا
لِلْفَهْـمِ يَدْنُو وَهْوَ نَـائِي الْمَنْزَعِ

40 مُزِجَتْ بِرِقَّتِـهِ الْجَزَالَـةُ يَا لَـهُ
مِـنْ رَاحٍ دَنَّ بِـالْفُـرَاتِ مُشَعْشَعِ

41 فَيَكَادُ يُدْرِكُـهُ الذَّكِـيُّ حَـلاَوَةً
وَطَلاَوَةً بِالْقَلْبِ قَبْـلَ الْمِسْمَعِ

42 تَعْرُو الْقُلُوبَ لَهُ ارْتِيَاحًا هِزَّةُ
يَسْخُو الشَّحِيحُ بِهَا لِحُسْنِ الْمَوْقِعِ

43 وَالشِّعْرُ لِلتَّطْرِيبِ أَوَّلُ وَضْعِهِ
فَلِغَيْرِ ذَلِكَ قَبْلَنَا لَمْ يُوضَعِ

44 وَالْيَوْمَ صَارَ مُنَكَّدًا وَوَسِيلَةً
قَدْ كَانَ مَقْصِدُهَا انْتَقَى لَمْ تُشْرَعِ

45 وَإِلَيْهِ تَرْتَاحُ النُّفُوسُ غُلُبَّةً
فَيُمِيلُهَا طَبْعًا بِغَيْرِ تَطَبُّعِ

46 يَنْسَاغُ لِلأَذْهَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَيَزِيدُ حُسْنًا ثَانِيًا فِي الْمَرْجِعِ

47 فَيَخَالُ سَبْقَ السَّمْعِ مِنْ لَمْ يَستَمِعْ
وَيَعُودُ سَامِعُهُ كَأَن لَمْ يَسْمَعِ

48 كَالرَّوْضِ يَغْدُو السَّرْحُ فِيهِ وَيَنْثَنِي
عِنْدَ الرَّوَاحِ كَأَنَّهُ لَمْ يَرْتَعِ

49 وَإِذَا عَرَفْتَ لَهُ بِنَفْسِكَ مَوْقِعًا
تَخْتَارُهُ يُهْدَى لِذَاكَ الْمَوْقِعِ

50 مَنْ كَانَ مُسْطَاعًا لَهُ فَلْيَأْتِهِ
وَلْيُقَنِّ رَاحَتَهُ امْرُؤٌ لَمْ يَسْطَعِ

51 وَالْجُلُّ مِنْ شُعَرَاءِ أَهْلِ زَمَانِنَا
مَا إِنْ أَرَى فِي ذَا لَهُ مِنْ مَطْمَعِ

ولا مناص لنا من ذكر بضع ملاحظات نصحب بها القصيدة دون أن نسلخها ساذج السلخ أو نسقط عليها من ذاتنا ما هي منه براء ، تاركين لغيرنا من القراء أن يصحح قراءتنا أو يضيف إليها .

1) يتضح من هذه القصيدة وعي نقـدى صريح بازمة الابداع فى الشعر العربـي :

اني هممت بان اقول قصيدة بكرا فاعياني وجود المطلـع

وهي ازمـة قائمـة على عنصرين : أولهما الشعـور بأن السابقيـن قد استنفدوا امكانات القول المتاحة فى المواضيع المألوفة ولذلك حذر من المبادرة إليها حين تحدى البلغاء أن يبدعوا قصيدة بكرا فقال بعد سرد أكثر مواضيع الشعر العربي التقليـدي :

فجميع هذا قد تداولـه الورى حتى غدا ما فيه موضـع إصبع

وثـاني العنصرين شعور بالعجز عن اكتشاف آفاق خارجة عن المألوف ، أو على الأصح بالعجز عن اكسابها شرعية فى الحقل الثقافى العربـي :

ان القريض مزلـة من رامـه فهو المكلف جمع ما لم يجمع
ان يتبـع القدمـا اعاد حديثهم بعد الفشو،وضل ان لم يتبـع

2) يصحب الوعي بازمة الابداع وعي بفوضى الملكية الأدبية الناجمة عن وحدة مصادر الاستلهام وتقارب خصائص الانتاج :

من مـدعى ما قالـه أو مـدع والمدعى ما قال أيضا مـدع
واليـوم إما سـارق مستوجب قطع اليمين وحسمهـا فليقطع
أو غاصب متجاسر لم يثنـه عن همه حـد العوالي الشـرع

3) طرح الشاعر آراءه النقدية فى رحلتين متمايزتين فتناول الشعر سلبا ثم ايجابا . والملاحظ أن مقياس النظر فى المرحلتين غير متحد فى الظاهر اذ هو حين حذر ونهى قد استعمل الأغراض والمعاني مقياسا لتحديد ما قيل وما لم يقل ، أما حين عرف الشعر الذي يبتغيه فإنه استند إلى خصائص أسلوبية موجبة غير مرتبطة بالغرض . وفى هذا دليل ضمني على الارتباط الوثيق فى ذهنه بين الغرض وطريقة التعبير عنه ولولا ذلك لما عوض عنده أحدهما الآخر .

ومن الجلي أنه في تحديده لماهية الشعر يستند إلى تصور وظيفي واضح يحدد على أساسه قيمة شعر معاصريه . فجميع الخصائص الأسلوبية التي طلبها في الشعر يمكن – على ميوعتها المعهودة عند القدماء خاصة إذا كانوا شعراء لا نقادا – ان تؤول بيسر إلى مفهوم التطريب الذي اعتبره غاية الشعر الاولى :

والشعر للتطريب أول وضعه فلغير ذلك قبلنـا لم يـوضـع

ولكنه يقابل بين هذه الوظيفة وبين ما آل إليه الشعر في عصره من تعقيد وعسر أدّيَا به إلى عكس المراد منه فقال في البيت التالي :

واليوم صار منكدا ووسيلـة قد كان مقصدها انتفى لم تشرع

وقد استغل في آخر البيت قاعدة أصحاب أصول الفقه القائلة « ان الوسائـل بحسب مقاصدها ، فإذا انتفى المقصد لم تشرع الوسيلـة إليـه » ليصل منها إلى إبطال جدوى كل شعر لم يستهدف التطريب :

من كان مسطاعـا له فليأتـــه وليقن راحته امرؤ لم يسطـع
والجل من شعراء أهل زماننا ما ان في ارى ذا له من مطمع

4) تنضح القصيدة بثقافة شعرية ونقدية واسعة كان ابن الشيخ سيديا متمتعا بها مكينا فيها . وإن لم يكن فى ذلك من أبناء بلده بدعا . ولئن لم يتسع المقام لتحليل عناصر هذه الثقافة ، فلا بأس أن نشير إلى أن الرجل قد أحال عليها صريحا في مواطن عدة من شعره يكفينا مثلا قوله من قصيدة أخـرى تستحق تحليلا منفردا (10) : (وافر)

وكم سامـرت سمارا فتـوّا إلى المجد انتموا من محتديـن
حووا أدبا على حسب فداسوا اديـم الفرقدين بـاخمصيـن
اذاكـر جمعهم ويذاكروني بكل تخالف فـي مذهبيـــن

(10) الوسيط : ص 206 – 207 .

كخلف الليث والنعمان طورا وخلف الاشعري مع الجويني
وأوراد الجنيـد وفرقتيـه إذا وردوا شـراب المشريـن
وأقوال الخليـل وسيبويـه واهلي كوفـة والاخفشيـن
نوضح حيث تلتبس المعانـي دقيق الفـرق بيـن المعنييـن
واطـوارا تميـل لذكر دارى وكسرى الفارسـى وذى رعين
ونحو الستـة الشعراء ننحـو ونحـو مهلهـل ومرقـشيـن
وشعـر الاعمييـن اذا أردنـا وان شئنا فشعر الاعشيين (11)
ونذهب تـارة لابـي نـواس ونذهب تارة لابن الحسين(12)

٩) لا شك أن هذه القصيدة بكر . إذ هي تطرح قضايا نظرية جديدة على عصرها كل الجدة ، دون أن تؤدي كثـافة مضمونها النظري إلى إضعاف خصائصها الأسلوبية بل تبقى قصيدة عربية ناصعة التعبير قوية السبك بديعة المعاني ، ويبقى لصاحبها سبق تاريخي غير منازع فيه ، وفضل على الشعر العربـي لم يستقه من أجنبـي المصادر ، فهو في نظرنا حقيق أن يتبوأ بها مكانه في مصاف كبار شعراء الضاد .

أحمد ولد الحسن

---

(11) الاعميان : بشار بن برد وأبو العلاء المعري .
والاعشيان : اعشى قيس واعشى همدان ، أو أعشى باهلة .
(12) ابن الحسين : أبو الطيب المتنبي . وجلي أن ما أوردناه له شاهد من سعة ثقافة الرجل وتنوعها.